﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

(من الآية ٤ سورة الرعد)

فالفلفل يأخذ المادة المناسبة للحريفية ، والقصب يأخذ المادة التى تصنع حلاوته ، والرمان يأخذ المادة الحمضية . هذا هو الانتخاب الإلهى .

« وكان الله على كل شىء مُقيتاً » وساعة تسمع « كان الله » فإياك أن تتصور أن لـ « كان » هنا ملحظاً فى الزمن ، فعندما نقول بالنسبة للبشر « كان زيد غنياً » فزيد من الأغيار وقد يذهب ثراؤه . لكن عندما نقول « كان الله » فإننا نقول « كان الله ومازال » ، لأن الذى كان ويتغير هو من تدركه الأغيار . وسبحانه هو الذى يُغَيِّر ولا يَتَغَيَّر ، وموجود منذ الأزل وإلى الأبد . وحين أوضح لنا سبحانه الشفاعة وأمرنا أن يعدى الواحد منا مواهبه إلى غيره فذلك حتى تتساند قدرات المجتمع لأنه يربب الفائدة للعبد المؤمن ويربيها للجميع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

الحق هنا يريد أن يربب معنى الحياة . فما معنى : « حُييتم » ؟ الكلام السطحى الأولى فيها : إذا حياك واحد وقال لك : « السلام عليكم » فعليك أن ترد السلام . وكان العرب قديماً يقولون : حياك الله . وبعد أن جاء الإسلام جعل التحية فى اللقاء هى السلام :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأحزاب)

أو كما قال الحق فى موقع آخر :

﴿ فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

ولنفهم معنى كلمة « حياك » . مادة الكلمة هى « الحاء » ، و« الياءان » ، ومنها كلمة « حياة » ، التى منها حياتنا . والحياة إذا نظرنا إليها قد تأخذ معنًى سطحياً عند الناس وهو ما نشأ عنه الحس الحركى وهى أول ظاهرة فينا ، وبعد ذلك فى الحيوان ، وإن ارتقيت فى الفهم تجد أن كلمة « الحياة » تنتظم كل أجناس الوجود حتى الجماد ، لكن الإنسان لا يتعرف إلى الحياة إلا فى المظهر الحسى والحركى ، ولكن لكل كائن حياة تناسبه .

وعندما كانوا يعلموننا فى المدارس علم المغناطيسية كنا نرى تجربة المغناطيس ونأتى بقضيب مغناطيسى ، ثم نأتى ببرادة الحديد ، ونسير به فى اتجاه واحد وذلك حتى نرتب الجزئيات ترتيباً يتناسب مع اتجاه المغناطيسية فى القضيب الحديدى . هذا القضيب الذى نراه مادة جامدة فى نظرنا ، ولكن توجد فيها ذرات دون إدراك الإنسان تتكيف بحركة خاصة بها ، ويُعاد ترتيب السالب منها والموجب ولا توجد قدرة عند المشاهد لها كى يدرك حركتها .

وحتى يقربها المدرسون إلى ذهن التلاميذ ، جاءوا بأنبوبة زجاجية ووضعوا فيها برادة الحديد وجاءوا بالقضيب الممغنط ومرّروه بجانب البرادة ، فرأى التلاميذ البرادة وهى تتقافز إلى أن تستقر ، وهنا يتعلم التلاميذ أن برادة الحديد غير الممغنطة عندما يمر عليها القضيب الممغنط فى اتجاه واحد فذراتها تترتب على أساس واضح ، حتى تصير ممغنطة .

وهذا دليل الحس ؛ فقد انقلبت السوالب فى جهة والموجبات فى جهة .. فالقضيب المغناطيسى له حركة ولكننا لا ندرك حسه ولا حركته لأننا لا نملك المقاييس اللازمة لذلك .

ومثال آخر : لنفترض أننا نتحرك وجاءت طائرة من أعلانا والتقطت صورة لنا .

وعندما يأخذون الصورة من قريب ، فهم يرون الحركة ، لكن كلما ابتعدت الطائرة فنحن لا نرى الحركة حتى تصير نقطة بعيدة وكأنها ثابتة . وهى ليست ثابتة ، وإنما هى متحركة بصورة دقيقة جداً لدرجة أنها لا تُدرك . فكل شيء - إذن - فيه حياة خاصة تناسبه ، وكل شيء له الحس والحركة الخاصة به . وعندما نأتى للقرآن ، نرى كيف عالج هذه القضية فيقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

استثنى القول وجه الله . أى ذاته ، فكل شيء ما عداه هالك .

ومعنى « هالك » أى ليس فيه حياة ، ومادام كل شيء يهلك فهذا دليل أن فى كل شيء حياة ، حتى يأتى الإذن من الحق أن تذهب الحياة من كل شيء إلا وجهه سبحانه ، وقد يتساءل إنسان ومن الذى قال : إن كلمة « هالك » تعنى ليس فيه حياة ؟ . نقول : إن القرآن حين يتعرض لقضية لا يقسم العلوم إلى أبواب ولكنه يضع فى كل آية جزئية تشرح لنا ما خفى علينا فى جزئية أخرى كى نفهم أن القرآن متكامل ، فيقول الحق :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورةالأنفال)

فيكون الهلاك ضد الحياة .

ونحن إذا ما نظرنا إلى الصناعات التى نصنعها ، وليكن البلاستيك مثلاً ، إننا نصنع منه أوانى للغسيل أو لخلافه ، وأول ما نشتريه للاستعمال نجده زاهى اللون ، وبعد استعماله لفترة يزول عنه البريق ويصبح شاحب اللون ، فما الذى حدث له ؟ . لقد تغير . ما الذى أحدث التغيير ؟ . يقال : الاستعمال وأشعة الشمس وغير ذلك . إذن ففيه حس لأنه تأثر وحركة لأنه تغيرّ ، وكذلك الأحجار الكريمة والمرمر والرخام وغيرها يقدرون عمرها بمئات السنين وأحياناً بآلاف السنين ، وكلما طال عمرها تغير لونها من الحياة والتفاعلات .

وعندما نمسك ورقة ونضعها تحت المجهر فإننا نرى عدداً هائلاً من الغرف الصغيرة ، ولا حصر لهذه الغرف ، ويقول المؤمن :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكل شيء في الوجود له حياة تناسبه ، إذ استقريتها وتتبعتها بدقة واستطعت أن توجد الآلات التي تستنبط والتي تساعد على الإدراك فإنك ترى الحركة وتشاهدها بالحس .

إلا أن الحياة بالنسبة لأرقى الأجناس ـ وهو الإنسان ـ المنتفع بكل كائن حي في الكون ، هذه حياة تنتهي في ميعاد مجهول بالنسبة للإنسان معلوم بالنسبة لله . وأراد الله أن يكلفه تكليفاً إن استمع إليه ونفذه فهو سبحانه يعطيه حياة لا تنتهي . وعندما نقيس الحياة التي لا تنتهي بالحياة التي تنتهي ، فأي منها جديرة بأن تسمى حياة ؟ . إنها الحياة الأخرى التي لا تنتهي ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

هذه هي الحياة الحقة ، وإلا فما قيمة هذه الحياة الدنيا التي تهددك فيها الآفات والآلام والاضطرابات والأسقام والأمراض ، وبعد ذلك تنتهي ، فيوضح الحق : خذ حياة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فهذه هي الحياة حقاً ، ولذلك فالحق عندما تعرض لهذه المسألة أوضح : إياكم أن تعتقدوا أن هذه الحياة الدنيا هي التي أريدها لكم ، أنا أريد لكم حياة أخلد من هذه ، ولذلك قال :

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هو يخاطبهم إذن فهم أحياء بالقانون المتعارف عليه ، وأنهم إن لم يستجيبوا إلى ما دعاهم إليه الحق والرسول لن يأخذوا لوناً أرقى من الحياة ، وهي حياة لا تهددها الآفات ولا الأثقال ولا الأمراض ولا الفناء ، إنها الحياة الحقة ، ولذلك يسميها الحق

« الروح » لأنها تحرك الجسم وتعطيه حياة وإن كانت تنتهى فيقول :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

هذه أولى مراحل الحياة الممنوحة للمؤمن والكافر .

ويسمى سبحانه الحياة الأكبر منها والتى لا تنتهى يسميها الحق (روحاً) أيضاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية٥٢ سورة الشورى)

وهذه هى التى سوف تعطى الحياة الأرقى . الأولى اسمها « روح » تعطى حياة فانية . والثانية هى « روح » أيضاً ، إنها ما أوحى الله به ، لأن الناس إذا عملوا به يحيون حياة دائمة خالية من الشقاء والكدر . إذن فقوله : « إذا دعاكم لما يحييكم » هى دعوة إلى الحياة الخالدة ، والحياة الأبدية السعيدة فى الآخرة مرهونة بأن يلتزم الإنسان منهج الله فى حياته ، وإن كانت منتهية .

والحياة الدنيا يرى الإنسان فيها الأغيار والأسقام والمهيجات ، فإذا جاء له من يطمئنه ومن ينفى عنه القلق والخوف فكأنه يحسن حياته . وكلمة « حياك الله » أو « السلام عليكم » تعنى : « كن آمناً مطمئناً » وإلا فما قيمة الحياة بدون أمن واطمئنان ؟ .

إذن فكلمة « حياك الله » أو « السلام عليكم » أى الأمان والاطمئنان لك . فأنت لا تعرف هل يجىء القادم إليك بخير أو بشر ، لكن ساعة يقول : السلام عليكم ، فقد يجعل بهذه التحية الأمان فى قلب المتلقى به ويشعر بقيمة حياته .

إذن فقوله الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » يعنى : إذا ربيتم حياتكم بالتحية التى هى السلام والتى تضمن الأمن والاطمئنان عليكم رد التحية . فكلمة « تحية » إعطاء لقيمة الحياة ، وكذلك كلمة « حيوا » أى أعط من أمامك شيئاً من الحياة المستقرة الآمنة المطمئنة . فالحياة بدون أمن وبدون اطمئنان ، كلا حياة .

والشاعر العربي يقول :

ليس من مات فاستراح بميْت إنما الميْت ميّت الأحياء

فقول الحق : « وإذا حييتم » أى أنه إذا ربيتم حياتكم وبوركتم بالأمن وبالسلام « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أى عليكم أن تردوها إما بالتحية مثلها وإما بأفضل منها . والعلماء عندما جاءوا ليتكلموا عن هذا ، قصروا المسألة على تحيات اللقاء . فمن قال لك : السلام عليكم ، فقل له : وعليكم السلام ورحمة الله . أى أنك تزيد عليه .

عن سلمان الفارسى قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : وعليك : فقال له الرجل : يارسول الله - بأبى أنت وأمى - أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على ، فقال : إنك لم تدع لنا شيئا قال الله تعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها فرددناها عليك »[1] .

وعندما تكلم العلماء فى مسألة السلام ، صنفوا لها فقالوا : الماشى يسلم على القاعد . والراكب يسلم على الماشى ، والصغير يسلم على الكبير . والمبصر يسلم على الكفيف . والقليل يسلم على الكثير . وكل خطاب موجه للمؤمنين ينتظم ويشمل ذكورهم وإناثهم إلا أن يكون الحكم مما يخص النساء .

وهنا يقول الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أللنساء تحية ؟. نعم ، لهن تحية ، المرأة تحيى المرأة ، والمرأة تحيى زوجها ، والمرأة تحيى محارمها ، والمرأة العجوز التى لا إربة فيها تبدأ التحية وتردها ، أما المرأة الشابة فهى لا تبدأ أحداً بالسلام ولا ترد السلام . لا تبدأ بالسلام إلا إذا كان معها مثلها ؛ لأنهم

(١) رواه ابن جرير .

يقولون : المرأة على المرأة عين أكثر من ألف رجل ، أى أن المرأة تحرس المرأة أكثر من ألف رجل ، فعندما تكون معها مثيلتها تحفظها ، ولذلك يقال : إن المرأة إن بدأت بالسلام أو ردت السلام فذلك حرام ، وإذا بدأها واحد بالسلام أو رد عليها السلام فذلك مكروه . لماذا؟ لأن بَدْءَها له إثارة ، ولكنه إذا بدأ هو بالسلام فليس ضرورياً أن تستجيب . فإن كان معها أحد أو جماعة تُؤمن عليها فلا حرج من أن ترد السلام .

وقالوا : وإذا كان الذى يلقى السلام ويبدأه به غير مؤمن ؟ النبى عليه الصلاة والسلام أوضح أنهم يلوون فى الكلام ، فإذا قالوا لكم : « السلام » فقولوا : وعليكم . وذلك يعنى إن قالوها كلمة طيبة لها معنى طيب فأهلاً بها وعليهم مثلها ، وإن كانت كلمة خبيثة كقولهم : « السام عليكم » فقولوا: «وعليكم » ؛ لأن السام معناها الموت ، فلكيلا يستهزئوا بكم ، قولوا : وعليكم . وبعض العلماء قال : المقصود بـ « فحيوا بأحسن منها » أى بالنسبة للمؤمن ، و« ردوها » بالنسبة للكافر .

لكن أتلك هى التحية فقط ؟ . إذا كان الذى حياك بقول وأمّنك بقول ، فكيف لا تحذر من يؤمن بالقول نفاقاً ، يظهر لك الأمن ثم يقول : السلام عليكم ، ومعه الضر ؟ . كما أن الحق علمنا أن نرد التحية بمثلها لأن نقل القضايا من قولية إلى فعلية هى المحك والأساس ، فإذا حياك إنسان بخير عنده فعلى المسلم أن يقدم التحية بخير منها ، وإن لم يستطع فليرد على الأقل بمثلها ، وعندما يرد الإنسان بمثلها يصبح التكارم بين الناس إن لم يزد فهو لم ينقص ، ويكون الخير متنامياً ، فإذا قدم إنسان خيرا لإنسان آخر ، وردّ عليه بعمل أفضل منه ، ففى ذلك نماء للخير ، وإن لم يستطع فليرد بمثل العمل وبذلك لا ينقص من خيره ، فيكون خير كل إنسان محجوزاً على نفسه ؛ لأنه مادام سيعطى التحية ويأخذ على قدر ما يعطى ، فكأنه لم ينقص من خيره شيئاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يسخّى النفوس فى أن تعطى أكثر مما حييت به ، فهذا يبين أن المؤمن فى البيئة الإيمانية إنما يتكاثر خيره ، لأنّه كلما فعل خصلة خير فهى تعود عليه بالخير . ولذلك فهناك أناس كثيرون إذا أرادت خيراً من أحد ، أعطته خيراً

يناسب قدرها ، ليعطى هو خيراً يناسب قدره ، وهذه تحدث كثيراً خصوصاً مع الملوك ، ومثال ذلك : كان المواطن السعودى يقول للملك عبدالعزيز آل سعود : أريد أن تشرب القهوة عندى ، ويذهب الملك عبدالعزيز آل سعود ليشرب القهوة ، ويؤدى لصاحب الدعوة خدمة تعادل القهوة مليون مرة ، فكل من يحيى الملك يرد عليه التحية بأكثر منها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » وجاءت كلمة « أو ردوها » من أجل أن يطمئن من قدم تحية أنه سيجد رد تحيته أو أكثر منها .

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى خلقه المؤمنين به يتكارمون ، فهو يضعها فى الحساب ؛ لذلك يقول سبحانه : « إن الله كان على كل شىء حسيباً » فالحساب لا ينتهى عند أن يرد المؤمن التحية أو يؤدى خيراً منها ، ولكن هناك جزاءً أعلى وأفضل عند مليك مقتدر .

وفى تناولنا لمسألة التحية عَلِمْنَا أن كلمة التحية وهى « السلام عليكم » معناها أمان واطمئنان ، والأمان والاطمئنان كلاهما يعطى الحياة بهجة ، فالحياة بدون أمن أو اطمئنان ليس لها قيمة . فكأن إشاعة السلام بقولنا : « السلام عليكم » أو « السلام عليكم ورحمة الله » أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » تجعل المجتمع مجتمعا صفائيا ، ومادام المجتمع كله مجتمعا صفائيا ، فخير أى واحد يكون عند الآخر . ويتعدى ذلك إلى أن يطلب المؤمن خير الله لأخيه المؤمن .

إن الإنسان حين يصعد التحية بعد قوله:« السلام عليكم » بإضافة « ورحمة الله وبركاته » فهو يربط النفس البشرية برباط إيمانى بالحق سبحانه وتعالى . وبذلك تتذكر وتعى أن الخلق عيال الله ، وسبحانه يجب أن يكون خلقه منسجمين بالعلاقات الطيبة فيما بينهم ، وعندما يكون الخلق على علاقة طيبة بعضهم مع بعض فسبحانه يعطيهم من خيره أكثر وأكثر .

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً »
ومن الطبيعى أن نفهم أن رد التحية يعنى أن نقول: تحية مثل التى قالها لنا، فالرد ليس

مقصوداً به أن نرد التحية نفسها ، ولكننا نقول مثلها . فالضمير مبهم ويوضحه مرجعه .

مثال ذلك أن تقول : « لقيت رجلاً فأكرمته » هنا الضمير مبهم ويوضحه مرجعه ، مثال آخر « تصدقت بدرهم ونصفه » فهل معنى ذلك أننى تصدقت بدرهم ثم استرددته وقسمته قسمين وتصدقت بنصفه ؟ لا ، إن معنى ذلك هو أننى تصدقت بدرهم ، ونصف مثل الدرهم ، فإذا قال الحق : « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أى ردوا التحية بأفضل منها أو بمثل التى تتلقاها ، فإذا ما قيل لك: « السلام عليكم » فقل « وعليكم السلام » .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ المؤمنين : لا تظنوا أيها المؤمنون أنى بخلقى لكم وإعطائى لكم حرية الاختيار فى الإيمان أو فى الفعل أو فى الترك إياكم أن تظنوا أنى لا أحاسبكم بل سأجازيكم بالثواب على الطاعة وبالعقاب على المعصية ، فحين آمركم بفعل ، فمعناه أننى خلقتكم صالحين أن تفعلوا ، وحين أنهاكم عن فعل فمعناه أننى خلقتكم صالحين ألا تفعلوا .

إذن فعندما يأتى أمر ؛ فمعنى هذا أن الذى خلقنى علم أزلاً بصلاحيتى لتنفيذ هذا الفعل أو عدم تنفيذه . . أى صلاحيتى أن أطيع وأن أعصى ، إذن فهناك فعل يقول الحق للعبد فيه : « افعله » ، وفعل يقول له فيه : « لا تفعله » ، والمخالفات والمعاصى إنما تنشأ من نقل « افعل » فى مجال « لا تفعل » ، ومن نقل « لا تفعل » فى مجال « افعل » ، هذا هو معنى المعصية . والحازم لا يأخذ الاختيار الممنوح له ليحقق شهواته بوساطة هذا الاختيار ، بل لا بد أن يضع بجانب الاختيار أنه مردود إلى من أعطاه الاختيار .

وحين تعلم أيها العبد أنك مردود وراجع ومصيرك إلى من أعطاك الاختيار وأنه سوف يجازيك ، فإنك لن تنقل أمراً من مجال « لا تفعل » إلى مجال « افعل » ، أو من مجال افعل إلى مجال لا تفعل . فلو أخذت الاختيار لتريح نفسك لحظة وهى فانية ، فكيف تتعب نفسك فى الباقية ؟ فإن أردت أن تكون حازماً وعاقلاً فلا تفعل ذلك ؛ فالمؤمن يمتلك الكياسة والفطنة فلا يُقْدِمُ على مثل هذا .

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

وهذا يعنى : أنه لا يوجد إله آخر سيأتى ليتدخل وينهى المسائل من خلف ظهر الخالق الأعلى سبحانه . « الله لا إله إلا هو » فليس هناك إله سواى ، لا تشريع يرسم صلاح البشر إلا تشريعى وسترجعون إلىّ ، وليس هناك واحد يقول:« افعل » « ولا تفعل » ، والآخر يقول بالعكس ، إنه إله واحد ، والأمر منه بـ« افعل » هو الأمر الوحيد الصالح للإنسان . والنهى منه بـ« لا تفعل » هو النهى الوحيد الذى يجب على العاقل أن يتجنبه ، ولذلك تجده يقول :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكافرون)

إنه سبحانه يوضح : ليس هناك مضارة بين دينين ، دين للكافرين ، ودين للمؤمنين ، لا ، بل هو دين ومنهج واحد صالح للإنسان هو منهج التوحيد جاءت به الرسل جميعا وختم بالإسلام الذى لا دين بعده ، ولذلك جاء بعدها مباشرة :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النصر)

ويأتى بعد ذلك بسورة المسد :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا

﴿ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ۝٥﴾

(سورة المسد)

أما كان أبو لهب يقدر أن يقول بعدها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ كان يقدر ، ولو قالها لشكك فى هذه الآية ، ولقالوا : إنه لن يصلى ناراً ذات لهب . إن هذا الأمر كان له فيه اختيار ، ولم يوفقه الله إلى أن يقولها ولو نفاقاً ، لماذا ؟ لأن الحق قال بعد هذه الآية مباشرة :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

(سورة الإخلاص)

أى فليس هناك إله آخر يرد أمره سبحانه وتعالى : « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » . وكلمة « يجمع » تعنى أنه يخرجنا مع بعضنا من قبورنا جميعا ، ويحشرنا جميعاً أمامه ، وقد تعنى « ليجمعنكم » أى ليحشرنكم من قبوركم لتلقى جزاء يوم القيامة .

لماذا جاء هذا القول ؟ جاء لكى يتفحصه العاقل ، فلا يأخذ انفلات نفسه من منهج الله إلا بملاحظة الجزاء على الانفلات من المنهج ، فلو أخذ نفسه منفلتاً عن منهج الله بدون أن يقدر الجزاء لكان أحمق وأخرق .

ولذلك قلنا : إن الذين يسرفون على أنفسهم فى المعصية لا يستحضرون أمام عيونهم الجزاء على المعصية . ولذلك يقولون : كل الجرائم إنما تتم فى غفلة صاحبها عن الجزاء ؛ فالمجرم يرتكب جريمته وهو مقدر السلامة لنفسه ، والسارق يذهب إلى السرقة وهو مقدر السلامة ، لكن لو وضع فى ذهنه أنه من الممكن أن يتم القبض عليه لما فعلها أبداً .

والحق سبحانهوتعالى يوضح : إياك يا من تريد ـ بالاختيار الذى أعطيته لك ـ الانحراف عن منهجى ألاّ تقدر الجزاء على هذه المخالفة . بل عليك أن تأخذها قضية واضحة ، واسأل كم ستعطيك المعصية من نفع وكم سيُعطيك الله من خير على الطاعة ، وضع الاثنين فى كفتى ميزان ؛ فالذى يعطيك الخير الأبقى افعله ، وابتعد عما لا يعطيك الخير بل إنه يوقعك فى الشقاء والشر .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ويوم القيامة هو اليوم الذى قال فيه الحق :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾

(سورة المطففين)

ولماذا يوم القيامة ؟ لأن آخر مظهر من مظاهر دنيا الناس أنهم حين يموتون ينامون ، وهذا ما نراه ، وبعد ذلك ندخله إلى القبر ولا نعرف كيف يأتى قائماً من نومه إلا بقول الحق : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » .

أى يجب أن يكون الإيمان بيوم القيامة لاشك فيه ؛ لأنك لو قدرت أن العالم الذى خلقه الله مختاراً ، إن شاء فعل الخير وإن شاء فعل الشر ، وهو ـ سبحانه ـ زود العباد بالمنهج ، وجعل لهم الاختيار ، وأنه ـ سبحانه ـ هو القادر على الجمع يوم القيامة لو قدرت هذا لا مبتّما طلبه الله منك .

ونضرب هذا المثل لا للتشبيه ، ولكن للتقريب ـ ولله المثل الأعلى ـ الوالد يعطى ابنه جنيهاً ويقول له : اشتر ما تريد ، ولكن لاحظ أنك إن اشتريت شيئا مفيداً فسأكافئك ، وإن اشتريت شيئاً فاسداً كأوراق اللعب أو غيرها فسأعاقبك .

ساعة أعطى الوالد ابنه القوة الشرائية وقال له : انزل اشتر ما تريد ، والابن ساعة اشترى أوراق اللعب . هل هذاالشراء قد تم قهراً عن أبيه ؟ لا ، لأن الأب هو من أعطاه الاختيار ، لكن الابن فعل فعلاً غير محبوب لأبيه .

فما بالنا بالعبد عندما يعطيه الحق الاختيار ؟ ولو أراد الله الناس جميعاً على هداية لجعلهم كالملائكة ، ولما جرؤ ولا قَدَرَ أحد أن يفعل معصية . فالعاصى عندما يرتكب المعصية إنما يفعلها لأن الله خلق له الاختيار . ولذلك فعندما يقول واحد : كل فعل من الله ، هو صادق . ولماذا يتعذب مرتكب المعصية مع أنه يوجه آلة الاختيار إلى ما تصلح له ؟ ونقول إنه وجهها مخالفًا لأمر الله ، فالسكين للذبح ، إن ذُبحت بها دجاجة لما استحق الذابح على ذلك عقاباً ، لكن لو ذبحنا بها إنساناً لوقعنا فى محظور يشبهه الحق بقتل الناس جميعاً . فالذى جاء بالسكين إلى المنزل هل نقول له : « أنت أتيت بأداة الجريمة » ؟ لا ؛ لأنه جاء بأداة صالحة لأن تكون أداة لذبح ما يحل ذبحه أو أداة

لجريمة . إذن فحتى المختار لم يفعل اختياره إلا من باطن أن الله خلقه مختاراً .

لكن هل ألزمه الحق سبحانه وتعالى بأن يفعل المعصية ؟ لا ، فسبحانه أوضح لك : هذا لا أحبه ، وهذا أحبه . واختيارك له مجال ، ولك أن تختار الشيء الذى يأتى بالنفع ولا يأتى بالضرر أو أن تختار عكس ذلك .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » هذا خبر من الله . والكلام الخبرى عندنا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، لكن لأن الخبر من الله فهو صادق . أما الكلام فى ذاته فيحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، ولذلك يذيل الحق الآية بما يلى : « ومن أصدق من الله حديثاً » وهل الصدق فيه تفاضل ؟. ليس فى الصدق تفاضل ، فمعنى الصدق مطابقة الكلام للواقع ، فالإنسان قبل أن يتكلم وهو عاقل ، يدير المسألة التى يريد الكلام فيها ليُعمل العقل فيها ، وبعد هذا ينطق بالكلام .

إذن ففى الكلام نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية . فعندما يقول واحد : « زيد مجتهد » هو قبل أن يقول ذلك جاء فى ذهنه أنه مجتهد ، وهذه هى « النسبة الذهنية » ، وعندما ينطقها صاحبها تكون « نسبة كلامية » ، ولكن هل صحيح أن هناك واحداً اسمه « زيد » وأنه مجتهد ؟. إن طابقت النسبة الواقعية كُلا من النسبة الذهنية والنسبة الكلامية يكون الكلام صدقاً . وإن لم يكن هناك أحد اسمه زيد ولا هو « مجتهد » لا تتطابق النسبة الخارجية الواقعية مع النسبتين « الذهنية والكلامية » فيكون الكلام كذباً . فالصدق يقتضى أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع ، أى مع النسبة الخارجية الحاصلة .

ولماذا يكذب الكذاب إذن ؟. ليحقق لنفسه نفعاً يفوّته ولا يحققه الصدق فى نظره أو يدفع عنه ضرًّا . مثال ذلك : يكسر الابن شيئاً فى المنزل كمنضدة. فالأب يقول لابنه : هل كسرت هذه المنضدة ؟. وينكر الابن : لا لم أكسرها . هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عنها ضرراً وهو الإفلات من العقاب ، لأنه يعلم أن الصدق قد يسبب له عقاباً . ولا يحمله على الكذب إلا تفويت مضرة قد تصيبه من الصدق فيلجأ إلى الكذب . ويقول كلاماً يخالف الواقع .

إذن هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عن نفسه ضرراً . والذى ينفع الإنسان لابد أن يكون أقوى منه ، وكذلك الذى يضرّه . لكن بالنسبة لله لا يوجد من يسبب له سبحانه نفعاً أو ضراً . إذن فإذا قال الله فقوله الصدق ؛ لأن الأسباب التى تدفع إلى الكذب هو ـ سبحانه ـ منزه عنها .

وإذا كان الحق يعطينا الكلام الذى يوضح لنا واقع الحياة ويعطينا الكلام الذى لا يدخل فى واقع حياتنا ويصف لنا الغيب الذى لا يدخل فى نطاق ما نراه ، إذن فهو يكلمنا كثيراً .

فقوله الحق : « ومن أصدق من الله حديثاً » مؤكد بالنسبة لنا . وأفعل التفضيل هنا لا تأتى للتمييز بين كلام صادق وكلام أصدق ، ولكن لنعرف أن كلام الله لنا كثير . فالتكثير هنا إنما يجىء من ناحية كثرة الكلام ، لا من ناحية أن هناك كلاماً صادقاً وكلاماً أصدق .

والتفاوت قد يوجد فى الصدق أيضاً ، كيف ؟ . لنفرض أن إنساناً رأى حادثة يقتل فيها إنسان إنساناً آخر ، فيشهد الشاهد بأنه رأى الدم ينزف من القتيل إثر التحام القاتل به ، ولكن هناك شاهد آخر يروى كل التفاصيل التى بدأت من قبل المشاجرة بين القاتل والقتيل إلى أن صار هناك قاتل وقتيل . وهكذا نجد أن الشاهد الثانى أشمل فى الصدق من الشاهد الأول ، صحيح أن الشاهد الأول قال شهادة صادقة ، لكن شهادة الشاهد الثانى أشمل فى القضية نفسها .

إذن فقوله الحق : « ومن أصدق من الله حديثاً » أى أن الحق هو الأصدق بمعنى أنّ إخباره لنا جاء بالشمول الكامل ، وهو صدق لا تفاوت فيه ، فالصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ومادام هو كذلك فليس هناك صادق وأصدق ، ولكن أفعل التفضيل تأتى فى « أصدق » باعتبار أن كمية الصدق الصادرة لا حدود لها وأنّه سبحانه يعلم الأشياء على وفق ما هى عليه أى بشمول كامل . وخلقه إن حدث منهم صدق فى شىء فقد يحدث منهم الكذب فى شىء آخر . فقد تقول قضية تعلم أنها صدق ، ولكنها فى الواقع لا تكون صدقاً .

مثلاً ؛ فقد يقول قائل : زار فلان فلاناً بالأمس . هو اعتقد ذلك لأنه رأى حجرة الاستقبال فى بيت فلان مضاءة فسأل عن الزائر فقيل له : « فلان » فهو يروى خبر هذه الزيارة على وفق ما يعتقد ، ولا يقال : إن القائل قد كذب .

إننا يجب أن نفرق بين « الخبر » وبين « المخبر » ، كيف ؟. إذا قلنا : « زيد مجتهد » ، أيوجد واحد اسمه زيد ومجتهد بالفعل ؟. هذا اسمه الواقع . وهل أنت تعتقد هذا ؟. إذن فالإنسان هنا يحتاج إلى أمرين : معرفة وجود الشيء ، واعتقاد الشيء ، وبذلك يكون الخبر صادقاً والمخبر صادقا أيضاً .

وافرض أنك أخبرت أن زيداً مجتهد بناءً على أن أحداً قد أخبرك بذلك ولكنه لم يكن كذلك ، أنت هنا صادق وفق اعتقادك . لكن الخبر غير صادق فى الواقع . إذن ففيه فرق بين صدق الخبر وصدق المخبر . فإذا التقى الاعتقاد بالواقع صدق الخبر وصدق المخبر . وإذا كان الخبر موافقاً للواقع ومخالفاً للاعتقاد فالخبر صادق كموقف المنافقين الذين قال الحق فيهم :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

هذه القضية واقعة صادقة وأعلنوا هم ذلك ، ولكن الحق أضاف :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

فالقضية صادقة ولكنهم كاذبون ؛ لأنهم قالوها بلا اقتناع فكانوا كاذبين . والدقة هنا توضح الفرق بين صدق الخبر وكذب الاعتقاد . إذن فصدق المخبر أن يطابق الكلام الاعتقاد . والتكذيب واضح فى قولهم : « نشهد » ؛ وليس فى مقول القول وهو « إنك لرسول الله » فالشهادة تقتضى أن يواطىء ويوافق اللسان القلب .

ولذلك عندما يقرأ بعض الناس القرآن دون فهم اللغة العربية . . فيفهم بالسطحية هذه الآية فهماً خاطئاً :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ① ﴾

(سورة المنافقون)

فكيف يشهد الله أنهم كاذبون ، على الرغم من أنه سبحانه يعلم مثلما شهد المنافقون ؟ . ونرد : إن الخبر هنا لم يكن كذباً ، ولم يقل الحق ما يكذب الخبر ، لكنه أوضح صدق الخبر وكذب المنافقين فى شهادتهم لأنهم يظهرون غير ما يبطنون ويعتقدون ، فالتكذيب منصب على شهادتهم لا على خبر أن محمداً رسول الله .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً » .

إنّ المؤمن يعتقد أن يوم القيامة لاشك فيه ، فيوم القيامة يجب منطقياً ألا يوجد شك فيه ؛ لأنه لو كان هناك ريب لكان الذين انحرفوا فى الحياة الدنيا وولغوا فى أعراض الناس وأخذوا أموالهم وعاثوا فى الأرض فساداً هم الذين كسبوا وفازوا ، ويكون الطيبون والأخيار قد عاشوا فى سذاجة . فالمنطق يقتضى أنه مادام قد وُجد أناس قد ظلموا واعتدوا ، وأناس اعتدى عليهم ، فلا بد أن يكون هناك حساب . ولا يكون هناك حساب إلا إذا انتهت حكاية الموت ، بالإحياء والحشر والخروج إلى لقاء الله . ودليل هذا من الجاحدين أنفسهم ، كيف ؟ .

نحن نعرف أن المجتمعات غير المتدينة يضع قادتها القوانين التى تكفل حماية حركة المجتمع . هم يضعون مثل هذه القوانين ، ومن يخالفها يتم حسابه وعقابه . فإذا كان العقاب يمنع المجاهرة بالجريمة ، فماذا يكون الموقف ؟ إن الماهر إذن هو من يفلح فى المداراة عن عيون قادة هذا المجتمع ، ويستر نفسه عنهم حتى لا يناله العقاب .

إن هذه المجتمعات الملحدة تضع التقنينات لحماية نفسها ، فماذا تفعل هذه المجتمعات فى الذين ستروا أنفسهم ؟ . هم بقانون هذه المجتمعات كان يجب أن يعاقبوا ، وكان يجب أن تقولوا أنتم إن هناك مكاناً آخر وداراً أخرى يتم فيها عقاب من أفلت منا . فأنت أيها الملحد قد قننت لمن خالف تقنينك عقوبة . وهذا إن وقعت

عليه عينك ، وقبضت عليه يدك ، فما قولك فيمن لم تقع عليه عينك ولم تقبض عليه يدك ؟ .

إذن فنحن أهل الإيمان عندما نقول للملحد : إننا نكمل لك تفكيرك الناقص ونقول لكل الخلق : إنكم إن عَمِيتُم على قضاء الأرض فلن تعمّوا على قضاء السماء الذى لا تخفى عليه خافية . إذن فغير المؤمن بمنهج نأخذ منه الدليل على ضرورة المنهج . وعلى غير المؤمن بالمنهج أن يشكر أهل الإيمان ؛ لأننا نحن أهل الإيمان قد أكملنا له نقصاً فى تقنين البشر ، وهذا لحماية المجتمع من الكيد بالجريمة والستر بالمخالفة .

« ومن أصدق من الله حديثاً » أى لا أحد أصدق من الله فى الحديث . و« أصدق » جاءت كأفعل تفضيل لا لأن هناك صدقاً يعلوه صدق أصدق ، بل الصدق واحد ؛ لأنه مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ولكن « أصدق » هنا لكثرة الحديث الذى حدثنا الله به عما نشهد من عالم الملك ومما لا نشهد من عالم الملكوت ، فإن تحدث الناس فإنما يتحدثون فى عالم الملك الذى يدركونه بحواسهم ، ولكن الله إذا حدثنا فسبحانه يحدثنا عن عالم الملكوت أيضا ، فالله أصدق حديثاً ؛ لأنه أكثر مَن حدّث .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾

كل جملة سبقتها « فاء » فمن اللازم أن يكون هناك سبب ومسبب ، علة ومعلول ، مقدمة ونتيجة ، وكل الأشياء التى تكلم الحق عنها سبحانه وتعالى فيها